مركز المسبار للدراسات والبحوث
Al Mesbar Studies & Research Centre

المسيحيون في الشرق

الكتـــاب الواحد والتسعون – يوليو (تموز) 2014
كتاب شهري يصدر عن مركز المسبار للدراسات والبحوث

المسيحية... عشرون قرناً من تاريخ العراق

رشيد الخيُّون(*)

ارتبطت المسيحية قديماً بمختلف أَقوام العراق، وامتدت من أبرشية فرات ميسان (البصرة) إلى الصِّين، والهند، وسوقطرة في عرض المحيط الهندي بين الصُّومال وعدن، وإلى قطر، وكانت تعرف «ببيث قطرايي»، والبحرين والإمارات حيث جزيرة «صير بني ياس» التي وقفنا على آثار أساسات بناء كنيسة، تلك الجزيرة الواقعة غربي أبو ظبي وسط مياه الخليج.

(*) باحث ومحاضر عراقي مختص في الفلسفة الإسلامية.

كنت قد زرت كنيسة مار توما، أو مار توماس، بأبو ظبي (أغسطس «آب» 2011)، وتحدثت مع راعيها الأب جوهن فيليب أتارايل، وأشار إلى وصول المبشر مار توما إلى كيرالا الهندية، وهناك كنيسة باسمه، وأن مسيحيي كيرالا الهندية على المذهب الشَّرقي أي النِّسطوري، إن لم يقلها فقد فهمتها مِن وجود زوجة له وأطفال كانوا في استقبالنا في سكنه الملحق بالكنيسة[1].

يُقال إن مار توما قد قُتل بالهند، ودفن لفترة مِن الزمن ثم نُقلت رفاته إلى مدينة الرَّها، بعد أن قامت فيها مملكة مسيحية[2]. بينما يعتقد الأب ميخائيل الجميل أن المبشر الأول بالعراق هو آدي السليح العبراني، أحد حواريي المسيح السَّبعين، الذي أرسله توما، أحد التَّلامذة الاثني عشر، إلى الشَّرق. ثم تبعه تلميذه ماري بعد صلب السَّيد المسيح بثلاثين سنة[3]. لكنَّ آخرين ذكروا أن مار آدي كان مساعداً له في التَّبشير[4]. كذلك حاولت العثور على مكان الكنيسة التي قيل لي إن آثارها قد كُشفت بدائرة الدوحة، لكن لم يهدني إليها أحد، وعدت لضيق الوقت (ديسمبر «كانون الأول» 2012).

لم يشارك المسيحية في وجودها آنذاك بجنوبي العراق سوى المندائية والمجوسية، والأخيرة كانت ديانة الدَّولة السَّاسانية الرَّسمية. عشرون قرناً هو عمر المسيحية ببلاد ما بين النَّهرين، والآن دخلت القرن الواحد والعشرين، واجه خلالها أهل هذا الدِّين العسر، وتهنوا باليسر تبعاً للظَّرف السِّياسي، وحسب طبيعة شخصية الحاكم الفارسي المجوسي أو العربي المسلم وما بعدهما من مغولي وعثماني.

هناك روايات وآراء عديدة حول كيفية دخول المسيحية إلى العراق، منها: «أن أول جماعة نصرانية قامت في بلادنا، وفي مملكة حدياب بالذات كانت تتألف مِن

---

(1) راجع كتابنا: أبو ظبي تصالح العقل والثّروة... انطباعات ومشاهدات شخصية، فصل: التّجاور المريح: المساجد والكنائس، دار مدارك 2012، ص115 وما بعدها.

(2) حبي، كنيسة المشرق الكلدانية- الآثورية، لبنان- الكسليك، منشورات جامعة الرُّوح القُدس 2001 ص18.

(3) الكنيسة السريانية بين أنطاكيا وسلوقيا. قطيسفون، مجلة بين النهرين، 18 – 19 السنة 1977.

(4) حبي، كنيسة المشرق الكلدانية – الآثورية، ص18.

اليهود، وسرعان ما انضم إليهم بقية الأقوام والأجناس الوثنية وازداد عددهم»[5]. وهناك مَن اعتبر مار توما الرَّسول هو أول مبشري المسيحية بالعراق. كان تبشير توما «بشرق بلاد الفرثيين لدى اجتيازه لها في طريقه إلى الهند، حيث قضى شهيداً. وكانت أربيل آنذاك العاصمة الثانية للفرثيين، وتقع على طريق الهند أيضاً»[6].

بعد أربيل، تحدثت المصادر حول وصول المسيحية إلى مناطق العراق الأُخر: دخلت الموصل بواسطة «ما لا يقل عن ثلاثة مِن الرُّسل الاثني عشر، وهم: بطرس وتوما وبرتلماوس، يصحبهم أربعة مِن التَّلاميذ السَّبعين، وهم: آدي وماري وبنيامين وسمعان»[7].

بينما تأخر دخولها جنوبي العراق إلى عهد الملك السَّاساني شابور الأول (ت 272م). انتشرت هناك من طريق سبايا الرُّومان «الذين أتى بهم مِن المنطقة الرُّومانية في حروبه الكثيرة وغزواته الموفقة. فقد غزا أنطاكية مرتين، وأجلى العديد مِن سكانها إلى البلاد البابلية، وإلى سائر المناطق الفارسية. وكان مِن بين السَّبايا ديمترياس مطران إنطاكية نفسه»[8]، الذي نفي إلى الأهواز السنة 257م.

أشارت رواية أخرى إلى أن تأسيس كنيسة المدائن يعود إلى القرن الأول والثاني الميلاديين، أي في الأعوام (79 – 116م)[9]. غير أن هناك مَن أشار إلى التَّبشير المبكر بجنوب العراق، متزامناً مع شماله بحدياب. قال الأب اليسوعي: «إن الكتب الطَّقسية النِّسطورية وأعمال المجامع أشارت إلى دعوة آدي بين العرب في بلاد ميشان (ميسان) وسواد العراق وسكان الخيام»[10].

---

(5) نباتي، تاريخ عينكاوة، أربيل: مطبعة جامعة صلاح الدين 2000 ص38 عن آدي شير، شهداء الشرق 1 ص181. وحسب هامش المصدر المذكور، تعني حدياب بلاد الأكراد، وبالسريانية تعني بيت قراتواي، وهو إقليم يمتد من الزاب الكبير إلى الزاب الصغير، وسلسلة جبال زاكروس الموازية لنهر دجلة، وقاعدته أربيل.

(6) المصدر نفسه، ص41. حبي، كنيسة المشرق الكلدانية- الآثورية، ص 18.

(7) الدومنيكي، الآثار المسيحية في الموصل، ترجمة نجيب قاقو، بغداد، مطبعة الطيف، 2000 ص11.

(8) الأب البير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، الموصل، المطبعة العصرية، 1973، الوصلج 1 ص27.

(9) نباتي، تاريخ عينكاوة، ص31.

(10) الأب اليسوعي، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين 1912، ص75.

الحيرة المسيحية

بحث جواد علي (ت 1987) في ظاهرة عُباد الحيرة فتوصل إلى: «أن هذا الاسم لم يكن يعني قبيلة أو بطناً، وإنما يعني جماعة من قبائل شتى، جمعت بينها وحدة الدِّين ووحدة الموطن. لذلك لم يطلق إلا على النَّصارى العرب من أهل الحيرة. أما غيرهم من نصارى العرب فلم يشملهم اسم العبادين. ويمكن أن نقول استناداً إلى روايات الإخباريين في تحديد مدلول الكلمة واقتصارها على نصارى الحيرة من دون غيرهم من نصارى العرب: إن هذه الكلمة أطلقت في الأصل على مَن تنصر من أهل الحيرة، ليميزهم عن غيرهم من سكان المدينة من الوثنيين»[11].

أصبحت الحيرة، لمنزلتها المسيحية، داراً أبدية لرفاة عدد من الجثالقة العظام في تاريخ الكنيسة الشرقية، منذ القرن الخامس الميلادي وحتى بعد دخول العرب المسلمين إلى العراق بفترة طويلة. منهم: داد يشوع (456م)، بابوي (484 م)، آقاق (496 م)، حزقيال (581 م)، ايشوعياب (595 م)، كوركيس (681 م) وإبراهيم (850 م).

كذلك أصبحت الحيرة ملجأً للجاثليق الذي كان مركزه المدائن غالباً. ففي الأزمات الطَّارئة بين المسيحية والملوك السَّاسانيين يضطر إلى تركها. وبسبب ذلك غادر العاصمة «ايشوعياب الأول الأرزني (582-595م) والاجتماع بالملك النُّعمان بن المنذر، وهو أبو قابوس. وكان المنذر قد تنصر حديثاً السنة 593م، وصار يعد نفسه من حماة المذهب النُّسطوري، وأصبحت الحِيرة حاضرة ملكه، من معاقل هذا المذهب. وهناك وافت المنية الجاثليق فتولت شؤون دفنه هند الصغرى أخت النعمان»[12].

لأبي فرج الأصفهاني (ت 356 هـ) رواية في سبب تنصر النُّعمان بن المنذر، مفادها أنه أخذ بنصيحة أحد العباديين، وهو الشَّاعر عَدي بن زيد العبادي (ت

(11) جواد، علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد: مكتبة النهضة. بيروت: دار الملايين 1978. 3 ص171.

(12) أبونا، تاريخ الكنيسة الشَّرقية1 ص136.

587م)، عندما كان يرافقه في إحدى رحلاته، وقد مرَّ الموكب بشجرة ومقبرة فأنشده ما حمله على التنصر[13]، ولعلَّ عَدِياً كان أول المحذرين مِن توظيف الدِّين في السِّياسة، وإن لم يكن يقصدها وعبر حينها عن نزعته الصُّوفية المسيحية في البيت التالي، الذي استشهد به ابن خلدون (ت 808 هـ) في مقدمته فصل: «في انقلاب الخلافة إلى المُلك»[14]، أي وظفه لغرض سياسي، مِن دون أن يرجعه لصاحبه، ولا محقق الكتاب استخرجه مثلما استخرج بقية الأشعار في التَّحقيق. قال عَدِي بن زيد:

نُرَقعُ دُنيانا بتمزيقِ دِيننا　　　فلا دِينُنا يَبقى ولا ما نُرقِّعُ[15]

لعَدي بن زيد هذا ما يربط بين المسيحية وعبدة العرب قبل الإسلام، والاعتراف بالإله الواحد عندما قال[16]:

سَعى الأعداء لا يألون شرًّا　　　عليك وربَّ مكةَ والصَّليبِ

مِن المفارقة بمكان أن أختَيّ المنذر الثَّالث (512 – 554م) هند الصُّغرى ومريم كانتا مسيحيتين مع والدتهما، و«تعاون جميعهن في تأسيس دير شهير»[17]. بينما ظل الملك «لا يتردد في أن يقدم للآلهة ضحايا بشرية. ففي إحدى صولاته ضد الرُّوم استولى على 400 راهبة في منطقة حمص السُّورية، وقدمهن قرابين دون رحمة»[18].

إذا صح أن البيت الآتي:

نحن بما عندنا وأنـــت بمـــا

عندك راضٍ والرَّأي مختلفُ

---

(13) انظر: أبو فرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، تحقيق: إحسان عباس وآخرين، بيروت، دار صادر 2998 ج 2 ص 86.

(14) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق، علي عبدالواحد وافي، القاهرة، نهضة مصر 2004ج 2 ص588.

(15) اليسوعي، شعراء النَّصرانية قبل الإسلام، بيروت، دار المشرق 1967 ص470.

(16) المصدر نفسه، ص451.

(17) أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية 2 ص29.

(18) المصدر نفسه.

هو لأحد ملوك الحيرة التنوخيين، عمرو بن امرئ القيس من ملوك الدولة اللخمية بالعراق (380م)، فذلك سبق يُحسب للحيرة في التَّسامح، نقول هذا ونذكر اختلافات الروايات في نسبة هذا البيت العظيم[19].

من الحيرة امتدت الصِّلات بين قريش والعراقيين، فانعكس ذلك في ما بعد على ما بين الإسلام والمسيحية، عبر الصِّلات التِّجارية، ولعلَّ بيت عَدي بن زيد العبادي السَّالف الذِّكر علامة على تلك الصِّلات. فكان بالحيرة «سراة نصارى اشتركوا مع سراة قريش في الأعمال التِّجارية، مثل كعب بن عدي التنوخي، وهو من سراة نصارى الحيرة، وكان أبوه أسقفاً على المدينة، وكان يتعاطى التجارة وله شركة في التجارة في الجاهلية مع عمر بن الخطاب في تجارة البز، وكان عقيداً لهم»[20].

في الإسلام

تشرف العرب بالنَّصرانية، قبل الإسلام، فكانوا يقسمون بالكعبة والصليب معاً، مثلما تقدم مِن قول عدي بن زيد. وقال الأعشى الأكبر أو أعشى قيس (629م):

حلفتُ بثوبي راهب الدَّير والتي

بناها قصيٌّ والمضاف بن جرهم[21]

وفي رواية:

فإني وثوبي راهب الحجِ والتي

بناها قُصيٌّ وحده وابنُ جرهمِ[22]

---

(19) وروى سيبويه في الكتاب (1 ص74 –75) بأن البيت لقيس بن الخَطيم (ت 2هـ). لكن محقق كتاب سيبويه محمد عبدالسلام هارون (ت 1981) يجد البيت في خزانة الأدب (2 ص193) وجمهرة أشعار العرب (ص137) لعمرو بن امرئ القيس اللخمي من ملوك الدولة اللخمية بالعراق (380م). وفي الإنصاف (ص65) قيل لدرهم بن زياد بن زياد الأنصاري.

(20) جواد، علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج 6 ص596.

(21) ابن سيد النَّاس، عيون الأثر في فنون المغازي والشَّمائل والسِّير 2 ص262.

(22) اليسوعي، شعراء النَّصرانية قبل الإسلام، ص377. ومنها البيت المعروف:
فما أنت مِن أهل الحُجون ولا الصَّفا

وقال الزَّبرقان بن بدر، يوم وفد على النَّبي محمد مع تميم، مفاخراً شاعر الرَّسول المسيحي السابق حسان بن ثابت (ت نحو 54هـ):

نحن الكرام ولا حيٌّ يعادلنا

منَّا الملوك وفينا تُنصب البيعُ[23]

من جانبه استقبل النَّجاشي (9 هـ) المسلمين الفارين مِن قريش، لاجئين في مملكته، ورفض تسليمهم إلى موفد قريش عمرو بن العاص (ت 43هـ)[24]، الذي أصبح من أبرز أمراء المسلمين في ما بعد. وكان في مقدمة اللاجئين إلى الحبشة ابن عم النَّبي جعفر بن أبي طالب، المعروف بجعفر الطَّيار (قُتل 8هـ)، قيل: فقد ساعديه في غزوة مؤتة (كرك الأردنية حالياً) مع الرُّوم ليكون له جناحان يطير بهما في الجنة، فسمي بذي الجناحين[25].

كذلك استقبل مقوقس مصر رسول النَّبي محمد، وبعث بهديته إليه ومنها الجارية مارية القبطية (ت 16هـ)، وهناك مَن ملك يدها مِن زوجاته، لكنها مِن أمهات المؤمنين، وأم ولده إبراهيم[26]. وقبل هذا تقدم المسيحي عداس، وهو غلام من نينوى يعمل بخدمة نفر من ثقيف، يشد من أزر النبي محمد بعد أن لقي ما لقي من صد ثقيف وإيذائهم وسخريتهم. وتبسط معه في قصة النبي يونس أو يونان ليصبره على العذاب والخذلان[27].

كذلك أيد مسيحيو نجران الدَّعوة وكُتب عهد لهم، لم يلتزمه عمر بن الخطاب في ما بعد، فقد أمر بتهجيرهم عنها. ولما قِدم وفدهم برئاسة الأسقف أبي الحارثة

ولا لك حقُّ الشُّرب مِن ماءِ زَمزم

(23) ابن سيد النَّاس، عيون الأثر في فنون المغازي والشَّمائل والسِّير 2 ص262.

(24) الطَّبري، تاريخ الأُمم والملوك، تحقيق: عبد علي مهنا، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات 1998ج 2 ص245.

(25) ابن عبدالبرِّ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، القاهرة، الفجالة- مطبعة نهضة مصر 1 ص242.

(26) المصدر نفسه 4 ص 1912.

(27) الطبري، تاريخ الأمم والملوك 2 ص253.

«أظهروا الديباج والصّلُب ودخلوا بهيئة لم يدخل بها أحد، فقال الرَّسول: دَعوهم»[28].

كان ورقة بن نوفل، المتكهن بنبوة محمد، مسيحياً، وقيل إنه عاش ومات على المذهب الآيروسي الذي تجاوب معه الإسلام في صفات المسيح، وما يتعلق بالأقانيم الثلاثة. ولا نعرف ديانة خديجة بنت خويلد، قريبة ابن نوفل، وزوجة النَّبي الأولى، فربما كانت قبل الإسلام مسيحية أيضاً. هناك أحاديث عديدة خصت ورقة بن نوفل بالتكريم، منها: «أَنَّ خَدِيجَةَ سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ عَنْ وَرَقَةَ بْن نَوْفَل فَقَالَ قَدْ رَأَيْتُهُ فِي الْمَنَام فَرَأَيْتُ عَلَيْه ثِيَاب بَيَاضٍ فَأَحْسبُهُ لَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْه ثِيَابَ بَيَاضٍ»[29].

لخص أمير المدائن سلمان الفارسي (ت 36 هـ) ما يجب لأهل الذِّمة على المسلم بالآتي: «ثلاث من عماك إلى هداك، ومِن فقرك إلى غناك، وإذا صحبت الصَّاحب منهم تأكل مِن طعامه، ويأكل مِن طعامك، ويركب دابتك، وتركب دابته، في أن لا تصرفه عن وجه يريده»[30]. ويذكر أبو يوسف، في كتاب «الخراج» وصية للنبي محمد لوالي الجزية عبدالله بن الأرقم، جاء فيها: «ألا مَن ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته أو انتقصه، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة»[31]. وأوصى الإمام أبو حنيفة النعمان تلميذه خالد السمتي، بالقول: «عاشر أهل الأديان حسب معاشرتهم»[32].

لقد تعاملت الكنيسة بالعراق، فترة العهد الأموي، مع ولاة لا مع خلفاء، يتشددون ويتسامحون حسب أمزجتهم، ومستوى ثقافتهم وإنسانيتهم. ليس هناك مراعاة لعهد أو ذمة. غير أن المصادر المسيحية أشارت إلى انفتاح نسبي أيام معاوية بن أبي سفيان. فمن أخبار المؤرخ السرياني يوحنا برفنكابي (القرن الثَّامن الميلادي)

---

(28) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر 2 ص82.

(29) مسند ابن حنبل، باقي مسند الأنصار، حديث رقم: 23846.

(30) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي 2 ص126.

(31) المصدر نفسه 2 ص125.

(32) المكي، مناقب أبي حنيفة، بيروت، دار الكتاب العربي 1981ج 1 ص367.

«أن المسلمين قاموا بحق النَّصارى والرهبان، فكانوا يطالبونهم بالجزية. ويطلقون لهم الحرية التامة في أمور دينهم»[33].

انتقل مركز الخلافة في العهد العباسي إلى العراق، فأصبح التَّعامل مع الخلفاء مباشرة. يومها اقترب المسيحيون مِن دواوين الدولة التي كانت بحاجة إلى «مثقفين يقومون بأعباء الإدارة والدَّواوين والجباية والشُّؤون المالية، وكان المسيحيون وحدهم يمتازون في ذلك الوقت بثقافة عالية، فكانوا من أهل العلوم والحرف، كالفلاسفة والأطباء والفلكيين»[34].

كان الجاثليق طيمثاوس الأول أو الكبير (ت 823م) أبرز جثالقة الكنيسة الشَّرقية في العهد العباسي، فقد امتدت «كنيسة المشرق في عهده إلى الهند والصين والتبت»[35]. انحدر من أربيل وتدرج في المهام الدينية حتى حل محل الجاثليق حنا نيشوع الثاني. ومن أعمال طيمثاوس أنه «سعى كثيراً بتربية إكليروسه تربية صحيحة، وبنى لهم مدارس ومعاهد يتلقون فيها إلى جانب علوم الكنيسة العلوم المدنية بجميع فروعها وفنونها»[36].

عاصر طيمثاوس خمسة خلفاء عباسيين: المهدي (775 – 785م)، والهادي (785 – 786م) والرَّشيد (786 – 809م) والأمين (809 – 813م) والمأمون (813 – 833م). وكانت فترة رئاسته لكنيسة الشَّرق مثمرة في العلاقة بين المسيحيين والمسلمين. وقد اشتهرت فيها حواراته العقائدية مع الخليفة المهدي وعلماء المسلمين.

ظلت أحوال المسيحيين، حتى نهاية الدولة العباسية، خاضعة لإرادة الخلفاء والولاة والقضاة والمحتسبين، من دون أن تكون هناك ضوابط واضحة. وساير أغلب هؤلاء سلوك العامة، ونشدوا تأييد الحنابلة على وجه الخصوص بممارسة التَّضييق

---

(33) أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية 2 ص53.

(34) أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية 2 ص105.

(35) المصدر نفسه 2 ص102.

(36) ساكسو، البطريرك طيمثاوس الكبير رائد الحوار المسيحي – الإسلامي في العصر العباسي، بين النهرين، العدد 4 السنة 1976.

على أهل الذِّمة. فالخليفة أو الوالي يهدم الكنائس، وهو نفسه يرخص بإعمارها، والمتشدد ينفذ فيهم أحكام العُمرين، ابن الخطاب أو ابن عبدالعزيز، وهذا ما تحقق بشدة على يد جعفر المتوكل (ت 247هـ).

كان الخلفاء والوزراء يحاولون كسب المذاهب السائدة والمهيمنة على العامة؛ مثل المذهب الحنبلي أو الشَّافعي الشديدين على أهل الذِّمة. حدث مثل هذا في أزمة الخلافة عقب فشل انقلاب عبدالله بن المعتز ضد المقتدر بالله سنة 296هـ. فتقرر عدم استخدام «أحد من اليهود والنَّصارى إلا في الطِّب والجهبذة فقط، وأن يطالبوا بلبس العسلي، وتعليق الرِّقاع المصبوغة بين أظهرهم»[37]. غير أن المسيحيين، وأهل الذِّمة عامة، أثبتوا وجودهم من طريق إتقان المهن، التي عزف عنها العرب المسلمون، بداية من الطب والهندسة والترجمة إلى الصياغة والحدادة والزِّراعة، وأعمال الخدمة المتنوعة الرَّفيع منها والوضيع. وهي تتراوح بين الطّبابة والكتابة والتَّنظيف، وأثر ذلك ما زال بائناً ببغداد والبلاد العراقية الأخرى.

شهد العراق حضوراً مميزاً للأطباء المسيحيين، وأول هؤلاء كان الطَّبيب (تياذوق)، طبيب الحجاج بن يوسف الثقفي (ت 95هـ). وكان «فاضلاً وله نوادر وألفاظ مستحسنة في صناعة الطب»[38]. وكان قد شفى الحجاج من أكل الطين[39]. وخدم جورجيس بن جبرائيل أبا جعفر المنصور (ت 158هـ) وكان حظياً عنده وترجم له كتباً عديدة، استدعاه المنصور من جند نيسابور العام 148هـ لعلاجه من فساد معدته وانقطاع شهوته[40].

العهد المغولي

كانت المسيحية قد وصلت عبر العراق إلى الهند وما وراء النهر، فاعتنقها

(37) ابن تغرى بردى، النُّجوم الزَّاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية 1932ج 3 ص165.

(38) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت، دار الثَّقافة 1987ج 2 ص32.

(39) المصدر نفسه 2 ص34.

(40) المصدر نفسه 2 ص37.

الكثير من المغول، حتى إن مغولياً مثل (يهبالاها) (القرن الخامس الميلادي) نصب جاثليقا للكنيسة الشرقية. وفي فترة متأخرة نصب يهبالاها الثالث (1281 – 1317م) جاثليقاً أيضاً. وإن الجيش المغولي، الذي اجتاح بغداد يتكون من جنود يدينون بالمسيحية. وكانت زوجة هولاكو، دقوز خاتون مسيحية أيضاً. فعملت «ما بوسعها للذود عن المسيحيين»[41].

حسب الأب الدومنيكي أن تعاطف المغول مع المسيحيين يعود إلى أسباب عديدة؛ منها «عقلية المغول التي تميل بطبيعتها إلى الخرافات، وتأثير النساء المسيحيات، والمصلحة السياسية»[42]. فغير المسيحيين منهم كانوا يسمون أولادهم بأسماء مسيحية ويعمدونهم. «إذ يرون في العماد طقساً سحرياً، تفيد ممارسته أكثر من نظرهم إلى حقيقته الأساسية. وعند قراءتنا تاريخ المغول قد يقودنا التفكير إلى عالم الغجر اليوم، الذين تمتزج مسيحيتهم بخرافات كثيرة جاءتهم من أجدادهم»[43].

يضاف إلى تلك الأسباب التي جعلت المغول يتعاطفون مع المسيحيين صلات البابوية مع خاناتهم، بعد أن أصبحوا قوة عظمى تتساقط البلدان والقلاع المحصنة أمامهم، وهم في طريقهم إلى بغداد. فقد أرسل البابا اينوشنسيوس العام 1248م، أي قبل اجتياح بغداد بعشر سنوات، رسالة يدعوهم فيها إلى اعتناق المسيحية[44].

كانت والدة الأمير مانكوخان (أخو هولاكو) مسيحية، فمال إلى أخواله مدفوعاً من وزيره النِّسطوري ولم يتردد في منح الجاثليق النِّسطوري مار مليخا[45] (ت 1265م)، بعد دخول بغداد، «ختماً ذهبياً يُتيح له إصدار الوثائق الرسمية إلى جميع المؤمنين الخاضعين له. وتكون هذه الوثائق مقبولة لدى السلطات المغولية»[46].

---

(41) أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية 3 ص7.

(42) الدومنيكي، الآثار المسيحية في الموصل، ص58.

(43) المصدر نفسه.

(44) المصدر نفسه، ص56.

(45) هكذا ورد اسمه في كتاب الحوادث الجامعة، وفي المصادر الحديثة ورد مكيخا.

(46) أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، 3 ص21.

أسلم بعد غازان أخوه الجايتو (ت 1316م)، وكان مسيحياً، وله اسم بالعماد، الذي عادة يسمى على أسماء القديسين، وكان يدعى نيقولاوس أسلم بعدها على المذهب الحنفي، وتحول بعدها إلى المذهب الجعفري، ثم عاد إلى المذهب الحنفي[47]. وعاد اضطهاد المسيحيين واليهود في زمن ولده أبي سعيد بهادر (1335م)، ففي أيامه «أُلزمت النَّصارى واليهود في بغداد بلبس الغيار، ثم هُدمت كنائسهم وأديرتهم، وأسلم منهم ومن أعيانهم خلق كثير. وجعل بعض الكنائس جوامع للمسلمين، وشرع في عمارة جامع بدرب دينار، وكان بيعة كبيرة جداً»[48].

وفي العهد الجلائري (1337- 1411م)، الذي حل محل العهد الإيلخاني، انخفض إيراد الجزية ببغداد، بعد تراجعه أواخر العهد السابق «بزيادة عدد الذين يدخلون منهم في الإسلام تخلصاً من المضايقات، ولجوء قسم منهم إلى منطقة الجزيرة وغيرها»[49]. وفي هذا العهد عاد الاضطهاد الدِّيني من جديد وأُلزم أهل الذمة «بالغيار، وهدمت كنائسهم وأديرتهم، وأسلم منهم ومن أعيانهم خلق كثير، منهم سديد الدولة، وكان ركناً لليهود»[50].

في العهد العثماني

عاش المسيحيون العراقيون في ظل الدَّولة العثمانية بشكل عام «في ظل نظام كان التَّساهل فيه يزيد على ما كان في الولايات الأُخر. فبغداد كانت عالمية إلى حد أنها لا تشجع شيوع التَّعصب. يضاف إلى ذلك أن هذه الأقليات كانت تسلك سلوكاً حسناً. كما كان النَّاس قد ألفوهم نظراً لطول إقامتهم، ولعدم وجود ما يمنع اختلاطهم بباقي النَّاس. فربما كان من المحذور عليهم امتلاك الرقيق الأبيض أو أن يركبوا الخيل؛ لأن حصتهم من هذه الأصناف كانت العبيد والزنوج والحمير. على

(47) المصدر نفسه 3 ص17.

(48) بعد الجدل الذي كان يُثار في مجلسه بين المذاهب السُّنية، أراد العودة إلى ديانة أجداده، لكن هناك مَن أثناه ودله على اتخاذ المذهب الجعفري (راجع كتابنا: النِّزاع حول الدُّسور بين علماء الشِّيعة، الفصل الثاني: اقتراب الشِّيعة من السُّلطة).

(49) المصدر نفسه 3 ص97.

(50) المصدر نفسه.

أن التحقير الأعظم الذي كان يقضي بعدم الركوب مطلقاً، أو بالنزول عند مرور سيد من السَّادة كان لا يؤتى إلا قليلاً»[51].

من أخبار ولاية البصرة –وهي مركز جنوب العراق– الإيجابية تجاه المسيحيين، اضطرار السُّلطان العثماني إلى استحداث منصب معاون الدَّفتردار، أو وزير المالية في الولاية. و«كان يفترض أن لا يشغل هذا المنصب إلا المسيحيون»[52]. وأن يُكلف ناصر باشا آل سعدون مؤسس مدينة النَّاصرية الحديثة ومتصرفها، في أيام مدحت باشا في السبعينيات من القرن التاسع عشر، الشَّخصية المسيحية المعروفة نعوم سركيس، بتخطيط وإنشاء مدينة الشَّطرة، وهو «من الذين يثق بهم»[53]، فأصبح «ملتزماً لمقاطعات في أنحاء المنتفك وملاكاً فيها»[54].

في أحوال تلك الفترة أفاد تقرير المطران باييه عمانوئيل، أسقف بغداد الكاثوليكي (1742) إلى البابوية بروما، إعطاء صورة مفيدة لوضع المسيحيين، وبالأخص الكاثوليك منهم، في تلك المرحلة. وصاحب التقرير ولد بفرنسا، وأُوفد إلى العراق العام 1728، وأصبح أسقفاً للكاثوليك ببغداد، وظل في منصبه الديني حتى وفاته بمرض الطَّاعون، الذي اجتاح العراق سنة 1773[55].

يذكر المسيحيون العراقيون فضل أسرة الجليليين المسلمة بالموصل، التي كانت تسعى لحمايتهم من حملات الصفويين ضدهم، وفي حروبهم مع العثمانيين. ففي حصار سنة (1743)، الذي قام به نادر شاه على الموصل، قتلت قواته عدداً كبيراً «من المسيحيين. واستولت الأيزيدية على الأديرة ونهبتها وقتلت رهبانها. منها دير مار أوراها القريب من بلدة باطنايا في سهل الموصل. فأصاب الهلع أهل القرى، والتجؤوا

(51) المصدر نفسه.

(52) آداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة: هاشم صالح التكريتي، البصرة، جامعة البصرة، مركز دراسات الخليج العربي 1982 ، ص76.

(53) المصدر نفسه ص51.

(54) بصري، أعلام الأدب في العراق، لندن، دار الحكمة 1994ج 1 ص270.

(55) مجلة بين النَّهرين، العدد 43 السنة 1983.

إلى الموصل، حيث استقبلهم الحاج حسين باشا الجليلي، وشجعهم وجهزهم بالمؤن والأسلحة»[56]. كذلك مما تعرض لاضطهادات نادر شاه منطقة باطنايا، التي تقع شمال الموصل، سنة 1743[57].

تدخل الجليليون لحماية مسيحيي قرقوش من الجيش الصَّفوي، فطلبوا مِن سكانها «أن يحملوا كل ما يعزَّ عليهم ويتوجهوا إلى الموصل قبل عبور نادر شاه وعساكره إلى قرقوش»[58]. تجاوز أمراء الموصل بهذه المواقف النبيلة كل حكم أصدره خليفة أو والٍ مسلم ضد أهل الذمة. بداية بما نُسب إلى عمر بن الخطاب وانتهاءً بإجراءات المغول بعد إسلامهم. فقد عبروا بذلك عن نصوص القرآن الإيجابية مِن المسيحيين.

كان آل الجليلي من أغنياء الموصل، وحصلوا على مركز ولايتها، ليستمر حكمهم فيها فترة طويلة تمتد لأكثر من مئة عام (1726 ـ 1834). ويُذكر أنهم عرفوا بآل الجليلي نسبة إلى جدهم الأعلى عبدالجليل، وكان مسيحياً يعمل في الخدمة لدى والي الموصل العثماني، وقيل إن ولده إسماعيل عبدالجليل اعتنق الإسلام فنال مركزاً لدى العثمانيين، وهناك قصة سمعتها مِن أحد وجهاء الموصل، تقول بأن سبب إشهار إسماعيل الجليلي إسلامه، هو المضايقات الشَّديدة على أهل الذِّمة، وأن للمسلم الأولوية في الخدمات العامة والأسواق، حتى في محلات الحلاقين، وحصل أن جاء إسماعيل لحلاقة شعره، وما إن جلس في محل للحلاقة حتى جاء أحد المسلمين ونهره بأن له الأولوية كونه مسلماً، فنطق إسماعيل الشهادة، والتفت إليه: ماذا تريد بعد؟! ها أنا صرت مسلماً. وبهذا هيمن أولاد وأحفاد إسماعيل الجليلي على ولاية الموصل لأكثر مِن مئة عام.

عموماً، لم نقرأ عن تطبيقات عثمانية خاصة بأهل الذِّمة، مِن شروط الملابس

(56) أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية 3 ص212.

(57) حبي، كنسية المشرق الكلدانية – الآثورية، ص166.

(58) بهنام، قرقوش في كفة التاريخ، بغداد، مطبعة الأديب 1962، ص54.

الخاصة أو تحديد مستوى البناء إلى هدم كنائس وغير ذلك. والأمر ربما يرتبط بتبدل الزَّمن، وتقدم العثمانيين الحضاري قياساً بمن سبقهم من الملوك والحكّام، ووجود البعثات الدبلوماسية الأوروبية، التي تشارك المسيحيين الدين نفسه.

يضاف إلى ذلك طبيعة المذهب الحنفي الذي اعتمده سلاطين آل عثمان. فالإمام أبو حنيفة النُّعمان (ت 150هـ) لا يكفر أحداً، ولم يحكم بالقتل على مَن اُتهم بسب الرَّسول أو الصَّحابة، ويقضي بقتل المسلم بالذِّمي. ودليله على ذلك «عموم آيات القصاص مثل قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى. وقوله: وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ. وقوله تعالى: وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا. من غير فصل بين قتيل وقتيل، ونفس ونفس»[59]. اعتمد الفقه الحنفي على ما ورد عن النَّبي: أنه «أقاد مسلماً بذمي وقال: أنا أحق مَن وفى بذمته». وعن علي بن أبي طالب أنه قال: «أعطيناهم الذي أعطيناهم لتكون دماؤهم كدمائنا ودياتهم كدياتنا»[60]. وما سيأتي ذكره في فصل المذهب الحنفي يزيد على ذلك.

في القرن التاسع عشر، وبتأثير الدول الغربية، بدأ وضع الطوائف المسيحية الأخرى يتغير، فقد حصل الأرمن الكاثوليك العام (1831) على اعتراف بهم كطائفة مستقلة. كما اعترف لبطريرك الأرمن الكاثوليك العام (1857) بتمثيل «مصالح طوائف الكنائس الشرقية المتحدة مع الكنيسة الكاثوليكية، مثل الكلدان والسِّريان والملكيين (الرُّوم الكاثوليك)[61].

كان لإعلان المرسوم المعروف بخطية كلخانة (1839)، من قبل السلطان عبدالمجيد الأول (1839 ـ 1861)، أثره في مساواة الطوائف المسيحية أمام الدولة في الحقوق والواجبات؛ إذ تقرر صون أرواحهم وأعراضهم وأموالهم. ثم تبع ذلك إصدار خط همايون (1856)، الذي أكد صراحة «معاملة جميع تبعة الدولة العثمانية

(59) زيدان، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، بيروت، مؤسسة الرِّسالة للطباعة والنشر والتوزيع 1982 ص260–261.

(60) المصدر نفسه.

(61) المصدر نفسه.

معاملة متساوية مهما كانت أديانهم ومذاهبهم، مع الإبقاء على سلطات رؤساء الدين بشرط إعادة تنظيمها»[62].

وأصبح لكل طائفة مجلس روحاني ومجلس جسماني، إذ تم الاعتراف بطائفة اللاتين، التي تكونت من المهاجرين إلى العراق وبلدان الدولة العثمانية الأخرى، ومعظمهم من التُّجار الإيطاليين، ومن تبعهم بفعل حملات التَّبشير. واعترفت الدَّولة لأول مرة بالطَّائفة الكلدانية والنِّسطورية، فاستخرج البطريرك (زيعا) العام 1844، أثناء زيارته إلى القسطنطينية، فرمانا بلقب بطريرك الكلدان ببغداد والموصل.

لقد ضمن الدُّستور العثماني، الصَّادر في 23 ديسمبر (كانون الأول) العام 1876 أيام الصَّدر الأعظم (رئيس الوزراء)، ووالي العراق المتنور مدحت باشا، حقوقاً للطَّوائف غير الإسلامية، فقد «أطلق لقب عثماني بدون استثناء على أفراد التبعة العثمانية كافة من أي دين ومذهب كانوا، مع تأكيده أن الإسلام دين الدولة الرسمي. وضمن الحرية لجميع الأديان، بشرط عدم إخلالها براحة الخلق والآداب العمومية. وحافظ على الامتيازات الممنوحة للجماعات المختلفة.

الاضطهادات

اختلف الأمر في العصور الإسلامية، فهناك شريعة تتيح الإيمان بالمسيحية. لكن الأمر كثيراً ما كان يعتمد على تفسير أو تأويل أو فهم الخليفة أو الوالي للنص القرآني. يضاف إلى الدوافع الأخرى، ومنها المزاج الشخصي والطمع بضريبة الجزية. فالقرآن يحمل في ثناياه التضاد.

كشف عن هذه الظاهرة النَّبي محمد ومن ثم الإمام علي بن أبي طالب(اغتيل 40 هـ) في وصية لابن عمه عبدالله بن عباس (ت 67 هـ)، وهو يريد مفاوضة الخوارج. جاء في الحديث النبوي: «القرآن ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجه»[63].

---

(62) المصدر نفسه.

(63) شهري، ميزان الحكمة، بيروت، الدار الإسلامية للطباعة والنشر 1985ج 8 ص102.

وجاء في الوصية: «لا تخاصمهم بالقرآن، فإن القرآن حمال ذو وجوه، تقول ويقولون. ولكن حاججهم بالسنّة فإنهم لن يجدوا عنها محيصا[64].

فما يخص أهل الذِّمة هناك آيات تظهر الود لهم، وتعترف لهم بحقوق صريحة. بينما تعلن آيات أُخر تكفيرهم ونسخ ديانتهم بدين الإسلام، وتوصي بصغر رقابهم عند دفع الجزية. ومما جاء لصالحهم قوله: «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»[65]. «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ»[66] و«وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ»[67] و«وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ»[68].

غير أن لهجة القرآن اختلفت في آيات أُخر، فحلت المواجهة والنِّفرة محل الحوار والمودة، تجاه المسيحيين وأهل الذمة عامة، نذكر منها قوله: «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ»[69]. و«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»[70]. عموماً إن العبارة القرآنية التي وردت في آية الجزية «عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ» شجعت الفقهاء أن يعتبروا الجزية «من باب

---

(64) نهج البلاغة، شرح محمد عبده، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات 1993 وصية رقم 315 ص 622.

(65) سورة العنكبوت، آية: 46.

(66) سورة المائدة، الآية: 5.

(67) سورة المائدة، الآية: 47.

(68) سورة المائدة، الآية: 82.

(69) سورة التوبة أو براءة 29. معروف أن هذه السورة هي الوحيدة، كما تقدم، من بين سور القرآن المئة والأربع عشرة لم تُستهل بالبسملة، ذلك على حد قول الإمام علي بن أبي طالب حينما استفسره البعض عنها: «براءة نزلت بالسيف» (السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، بيروت، دار الكتب العلمية 1987 ج 1 ص142). وهناك مَن يرى أنها والأنفال كانتا سورة واحدة، فبسملتها جاءت في الأنفال.

(70) سورة المائدة، آية: 51.

العقوبات، لا أنها كرامة لأهل الكتاب. فلا يستحقها سواهم»[71].

يجد المتسامحون والمتشددون من الفقهاء المسلمين في هذه الآيات، التي تساعد معرفة أسباب نزولها على فهمها وتأويلها تأويلاً مناسباً، حجةً قرآنية تدعم السّلوكَين أو الممارستين، التَّسامح والتَّكاره، تجاه أهل الذِّمة. لكن لا أحد يستطيع إقناعنا بأن في القرآن ما يؤيد فرض زي خاص عليهم، أو تمييزهم بمراكب دونية كالحمير عوضاً عن الخيل والبراذين، أو يمنعون من تقلد السُّيوف، أو يُخفض بناء بيوتهم عن مستوى بناء بيوت المسلمين، أو لا تقبل شهادتهم مقابل شهادة المسلمين، أو تقل دية قتلاهم عن دية قتلى المسلمين، وأن لا يسمح بتجديد بيعهم، ولا الجهر بعبادتهم، ولا البكاء على ميتهم ولا الفرح بعرسهم، وأن يقتل غير المسلم إن كان على علاقة بامرأة مسلمة، ولا يؤكل طعامه وأن يشار إليه بالدونية!

تلخص ما عُرفت بالشِّروط العمرية أو العهدة العُمرية أسس معاملة أهل الذِّمة[72]، فنسخت فيها نصوصاً قرآنية وعهد النَّبي لهم.

أورد ابن تيمية هذه الشِّروط كالآتي:

- لا يتخذ المسيحيون كنيسة ولا صومعة في ديار المسلمين.
- لا يمنعون المسلمين من نزول كنائسهم لثلاثة أيام.
- لا يظهرون ما يخالف الإسلام.
- ولا يعلو بنيانهم على بنيان المسلمين.
- لا يعلمون أولادهم القرآن.

(71) ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، تحقيق، صبحي الصالح، دمشق، مطبعة الجامعة 1961ج 1 ص17.

(72) ابن تيمية، مسألة في الكنائس، الرياض: مكتبة العبيكات 1995 ص137-134.

- لا يركبون الخيل والبغال، بل يركبون الحمير وأفخاذهم مثنية.

- لا يظهرون على عورات المسلمين.

- يتجنبون أوساط الطرق توسعة للمسلمين.

- لا ينقشون خواتمهم بالعربية.

- أن يحلقوا مقادم رؤوسهم. ويلزموا الزي المقرر عليهم.

- لا يستخدمون مسلماً.

- لا يتسمون بأسماء المسلمين، ولا يتكنون بكناهم.

- ولا يركبون سفينة نوتيها مسلم.

- لا يشترون رقيقاً من سبي المسلم.

- لا يشترون شيئاً مما خرجت عليه سهام المسلمين.

- لا يبيعون الخمور.

- حكم الزَّاني منهم بمسلمة القتل.

- لا يلبسون عمامة صافية.

- لا يشتركون مع المسلمين بتجارة.

- لا يخدمون الملوك ولا الأمراء.

حذا زعيم الثورة الإيرانية آية الله الخميني (ت 1989) حذو الشَّيخ ابن تيمية

ضد أهل الكتاب؛ وشرع فيهم الشُّروط العمرية نفسها. حكم فيهم: أن لا يحدثوا كنيسة. ولا يضربوا ناقوساً. ولا يطيلوا بناءً. واشترط عليهم التميز في اللباس والشَّعر والركوب واستعمال الكُنى، أي لا يتكنوا بكُنى يتكنى بها المسلمون. وأفظع ما في ذلك هو كراهة تحيتهم ابتداءً، أو تحريمها وهو الأفضل عنده.

ولو بدأ الذِّمي بالسَّلام ينبغي أن يقتصر الجواب بكلمة (وعليكم) أي لا يجاب بعبارة «عليكم السَّلام» حتى يفهم أنه في حالة حرب لا سلام. ويستحب مضايقتهم لاضطرارهم إلى أضيق الطرق. هذا ما يخص أهل الذمة. أما أهل الأديان الأخرى، والصَّابئة منهم، حسب فقه الخميني، فالأفضل ترك السلام عليهم[73].

كتب ابن فضلان إلى الخليفة النَّاصر لدين الله (ت 622هـ) رقعة يطلب فيها تطبيق المذهب الشَّافعي في معاملة أهل الذِّمة، ليكون تنفيذها رسمياً بتوقيع الخليفة. ومِن وظائف صاحب الرِّقعة السَّابقة: قاضي قضاة، وناظر ديوان الحسبة، وناظر أوقاف المدارس والأربطة الصُّوفية، ومدرس المذهب الشَّافعي في المدرسة المستنصرية. أشارت رقعة صاحب الجوالي إلى تأرجح تنفيذ أحكام أهل الذِّمة المرفوعة كما قلنا إلى أحد العُمرين، ابن الخطاب أو ابن عبدالعزيز، ويأتي فيها بشواهد تاريخية ووصايا تدعم طلبه، لكن من حسن حظ أهل الذمة أن الخليفة الناصر، وهو من الخلفاء الأقوياء ذي الميول الشيعية، قد أهمل تلك الرقعة، ففيها ما يسيء إلى دولته ورعاياه[74].

جاء في «الحوادث الجامعة»: «فلما وقف الخليفة على رقعته لم يعد له جواباً». وأهمية الرقعة التَّاريخية أنها سجلت اضطهادات أهل الذِّمة على مرَّ العصور الإسلامية.

---

(73) الخميني، تحرير الوسيلة، دمشق، سفارة الجمهورية الإسلامية الإيرانية، 1998 طهران، منشورات مكتبة الاعتماد، 1983 ، ج 2، ص453.

(74) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق، مصطفى جواد، بغداد، المكتبة العربية ومطبعة الفرات 1351 هـ، ص64-70.

صنف الأب إسحق أرملة السرياني (1879 – 1954) كتاباً موسوماً بعنوان «القصارى في نكبات النَّصارى» وصنف هرمز أبونا في «الآشوريون بعد سقوط نينوى... مذابح بدر خان بك في تياري وحكاري». ذاكراً فيهما مذابح ومآسٍ مفزعة، تعرض لها المسيحيون قتلاً أو رمياً في الآبار بين (1846 – 1843) و(1890 – 1918) بالعراق وديار بكر وماردين، وغيرها من المناطق العثمانية آنذاك. وما فعله الأغوات الكوّرد في شمال العراق بالجماعات السِّريانية والآشورية، بدافع قومي وديني. وهذه المذابح التركية والكوّردية الرَّسمية التي لا بد أن تصنف في خانة الإبادة الجماعية والتَّطهير العرقي، أسفرت عن قلع مناطق وقرى مسيحية كاملة من الوجود.

فمن مظاهر تلك الحوادث حرق الكنائس وهدمها على رؤوس المصلين المسيحيين والمحتمين فيها. يحدث هذا عادة أثناء احتفال بعيد أو إقامة قداس. وتُنفذ المجازر أيضاً بهجومات جماعية على الأحياء الآمنة، وقتل ساكنيها وتشريدهم، حتى لم يحصل أن عُرض عليهم الإسلام، ليحموا أنفسهم من الموت كما جرت العادة، إن قبلوه سلموا وإن رفضوه قتلوا.

ومن الحوادث المفزعة أن يُجمع الأطفال تحت الحطب وإشعال النِّيران فيه، أو رميهم في الآبار. وخلاف تلك المشاعر العنيفة، هناك أغوات كوّرد حملوا مشاعر لينة لمواطنيهم من الأديان والقوميات الأُخر، فوقفوا ضد هذه الممارسات، وقاموا بحماية وإيواء العائلات، لأغراض يفسرها الأب أرملة تحت تأثير الشُّعور بالألم، وبالحاجة إلى مهارات هؤلاء الفنية، واستخدامهم بالخدمة. نقرأ في هذا الكتاب حوادث مريعة كثيرة قد يؤيد أنباء حصولها ما حصل من تغيير الواقع السكاني، بهذا المستوى لصالح الكوّرد المسلمين في المنطقة.

الأحد الدَّامي

يفهم مما تقدم، أن مأساة المسيحيين في مقدمتهم حصلت بفعل السُّلطة، بأيدي ملك أو خليفة أو أمير أو آغا. وربما لا تجد إلاَّ القليل وغير المحسوس مما يصدر من عامة النَّاس، من دون محرك أو دافع سياسي. فوجئنا بسلسلة من

الانفجارات التي طاولت خمس كنائس عراقية ببغداد والموصل العام 2004. كانت حصيلة ضحاياها عشرة قتلى وعشرات مِن الجرحى. حدث ذلك في صبيحة يوم الأحد الأول من أغسطس (آب)، وهو يوم دامٍ في حياة المسيحيين العراقيين.

وجهت أصابع الاتهام إلى الجماعات الدينية المتشددة، التي تعمل تحت إمرة الأردني أبي مصعب الزرقاوي، الذي قيل إنه وصل العراق في العهد السابق للعلاج بمستشفيات بغداد، كنوع من التعاطف بين نظام البعث وتنظيم القاعدة. وفي غضون ذلك أعلنت جماعة إرهابية مسؤوليتها عن تفجيرات الكنائس، تدعى «هيئة التخطيط والمتابعة في العراق»، في بيان بُث من موقع إلكتروني إسلامي. جاء فيه: «قام إخوانكم المجاهدون بتفجير أربع سيارات مفخخة في بغداد استهدفت الكنائس الواقعة في الكرادة وبغداد الجديدة والدورة، بينما تولت مجموعة أخرى من المجاهدين ضرب الكنائس في مدينة الموصل»[75].

جاء في فتوى تنديد السيستاني ما نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم.. في مسلسل الأعمال الإجرامية التي يشهدها العراق العزيز، وتستهدف وحدته واستقراره واستقلاله، تعرض عدد من الكنائس المسيحية في بغداد والموصل إلى اعتداءات آثمة، أسفرت عن سقوط عشرات الضحايا الأبرياء بين قتيل وجريح. كما تضرر من جرائها الكثير من الممتلكات العامة والخاصة. وإننا إذ نشجب وندين هذه الجرائم الفظيعة، ونرى ضرورة تضافر الجهود وتعاون الجميع، حكومة وشعباً، في سبيل وضع حدٍ للاعتداء على العراقيين، وقطع دابر المعتدين، نؤكد وجوب احترام حقوق المواطنين المسيحيين وغيرهم من الأقليات الدينية. ومنها حقهم في العيش في وطنهم العراق في أمن وسلام. نسأل الله العلي القدير أن يجنب العراقيين جميعاً كل سوء ومكروه، وينعم على هذا البلد العزيز بالأمن والاستقرار إنه سميع مجيب[76].

لقد فاجأتنا أكثر مِن مذبحة بحق المسيحيين فكان هناك أكثر مِن أحد دامٍ،

---

(75) جريدة الشرق الأوسط في عددها المؤرخ 3 أغسطس (آب) 2004.

(76) مكتب السيد السيستاني، النجف الأشرف 2 أغسطس (آب) 2004، 15جمادي الثاني1425.

وكان تفجير كنيسة النَّجاة واحدة مِن أبشعها. فقد فجرت كنيسة سيدة النَّجاة في 13 أكتوبر (تشرين الأول) العام 2010. وتعود كنيسة النّجاة إلى طائفة السّريان الكاثوليك مِنْ أصلاء العِراق، فهم تحولوا مِنْ النِّسطورية إلى مذهب اليعاقبة، وعرف المتحولون منهم إلى الكاثوليكية بالسّريان الكاثوليك.

عموماً، فإن تفجيرات الكنائس وإن استهدفت المسيحيين، محاولة دق إسفين بينهم وبين المسلمين حسب تصريح رئيس الوزراء السابق إياد علاوي، فإنها طاولت العراقيين على مختلف أديانهم ومذاهبهم. فقبلها فُجرت كميات هائلة من الديناميت بالقُرب من ضريح الإمام علي بن أبي طالب بالنجف مستهدفة آية الله محمد باقر الحكيم، فتركت جسده أشلاء متناثرة.

مأثرتان لمسلم وأيزيدي

لعلَّ تلك المقاتل والاضطهادات، وعدم لين الحكومات معهم، دفعتهم إلى التَّضامن مع الأرمن والمسيحيين عموماً، عندما تعرضوا إلى الاضطهاد العثماني (1915) بما يشبه الإبادة. يتذكر ذلك الأمير الأيزيدي إسماعيل بك چول، هذا الرَّجل الذي نعته صدِّيق الدَّملوجي (ت 1958) بـ«الأمي والغبي، لا يصلح أن يكون أكثر مِن راعي أبقار، وليس من له العقل ولا الفهم»[77]!

ولا ندري لماذا كل هذا التَّعالي وبخس النَّاس! وللأسف لم تأت الدراسات على كشف هذا الجانب التَّضامني في حياة الأَيزيدية أو ضمن ما أُرخ مِن حوادث المنطقة. فالأمير إسماعيل يبدأ بالحديث عن هذا التَّضامن بسرد منام كأنه دخل إلى كنيسة، مِن كنائس ماردين، وأن قساوسة دخلوها، وأمامهم صناديق يخرجون منها محارم سود ويوزعونها على النَّساء.

وحسب قوله، إنه بعد فترة، لما سمعوا باضطهاد سيصير ضد المسيحيين أرسلوا إلى مطران دير الزَّعفران ومطران مالايان الأرمني يخبرانهما بأن الأَيزيدية

(77) الدَّملوجي، اليزيدية، الموصل: الاتحاد 1949 ص422.

مستعدون للمساعدة، ومَن يحضر معهما مِن المسيحيين، وبالفعل حضرت حوالى مائة عائلة، وقام بالمساعدة أيضاً أمير الأَيزيدية بسنجار حمو شرو، وأخذ إسماعيل بك دواب بنقل المسيحيين إلى القرى الأَيزيدية بسنجار، وحمل معه صورة السَّيد المسيح، وقدم لهم الصورة لعلها تعوض عن الكنيسة، وتوافد عليهم المسيحيون مِن الأناضول وسوريا، وكان معهم قسيس فأخذوا يصلون معه.

أخذ إسماعيل يدور على القرى الأَيزيدية يوصيهم بالعناية بالمسيحيين، وخاض الأيزيديون معركة مع المسيحيين ضد الجماعة القادمة بدليس، وهم الذين اعتقد المسيحيون أنهم أسهموا بقتل جماعتهم هناك، ثم تسلل إسماعيل بك إلى الموصل والتقى ببطريرك الأرمن المنفي إلى الموصل مِن إستانبول، وزافيل أفندي، وأخبره سراً بوجود المسيحيين بسنجار. كذلك عمل الأَيزيدية على استقبال قوافل الأرمن المساقة إلى الإبادة، وتحدثوا معهم باللِّسان الأرمني والتُّركي، ناصحين العساكر بالرِّفق بهم، والأرمن بمحاولة الهروب إلى الجبل، وهناك يحميهم الأَيزيدية.

وحصل أن طلب قائمقام سنجار محيي الدِّين أفندي مِن أمير الأَيزيدية تسليمه اثنين من النساء الأربع الأرمنيات، اللواتي لذن بحمى داره، فامتنع بشدة، ولكن القائمقام أبلغ حكومة الموصل بأن أيزيدية سنجار يخابرون الإنجليز، وينهبون ويسلبون، فجاءت الأوامر إلى العشائر العربية بقتل الأَيزيدية وسبي ذراريهم ونهب أَموالهم، كان ذلك في يناير (كانون الثَّاني) العام 1918، ووصل عسكر عثماني ووضع شروطاً على الأَيزيدية: تسليم المسيحيين الموجودين بسنجار وأَطرافها وتسليم الأسلحة، وأَخذ اثنين وعشرين من أكابر الأَيزيديين رهائن عندهم وحصلت المعركة وترك الأَيزديون، ومعهم الأَرمن، المدينة إلى الجبل.

بعد سفر مُضنٍ، ومواجهة مصاعب مع عشائر الأَنبار، غربي العِراق، ولم يجد حرجاً كونه شيخ الأَيزيدية بين شيوخ تلك العشائر، وخصوصاً وضوح هزيمة الأَتراك، تمكن إسماعيل بك مِن الوصول إلى بغداد، ومقابلة القادة الإنجليز، وطلب منهم الأسلحة والمعونة، مع المساعدة في احتلالهم للموصل، أو على حد عبارته

تزويده بتنكة (صفيحة) من السُّم ليشربها مع قومه والمسيحيين المحاصرين معهم بجبل سنجار!

بعدها تمكن من مقابلة المس بل (ت 1926)، وسلمته ثلاثة آلاف روبية، وينتظر ما سيصدر له من أمر. لكن الأتراك خرجوا مِن الموصل، وعاد الجميع إلى سنجار، إلا أن خلافاً داخل إمارة الطَّائفة الأَيزيدية جعل الإنجليز يأمرون إسماعيل بك أن يبقى ببغداد لفترة. ثم عاد وسويت الأمور. فوجد من المسيحيين الأرمن مَنْ ردَّ الجميل بالعناية بالأَيزيدية في ظروف صعبة[78].

ما سرده أمير الأَيزيدية من حوادث وسعي لحماية المسيحيين من الإبادة شهد له بها الأب إسحق أرملة السرياني (ت 1954)، للأيزيدية ولشيخ طي المسلم أيضاً قائلاً: «لابد لنا من كلمة في شأن محمد شيخ طي، فإنه أوصى مَن ينتمي إليه أن يحقن دم كلِّ نصراني يلوذ به، وأرسل عدداً من المسيحيين إلى صديقه حمو شرو صاحب سِنجار»[79].

أقول: على الرغم مما يُشار إلى دافع العداء الأيزيدي للعثمانيين، فإن القصة التي سطرها الأمير الأيزيدي تُعد واحدة من ملاحم التضامن والتسامح بين الأديان داخل العراق، ولعلَّ الموقف المسيحي الآثوري الإيجابي مع الأيزيديين (1935) السَّالف الذِّكر، يتعلق بحمايتهم بالموصل وخارجها مِن قِبل أمراء الأَيزيدية.

والشيء بالشيء يُذكر، لما حصل أن هربت ابنة إسماعيل بك، واسمها ونسا، بعد أن أطلقت النَّار على زوجها أمير الشَّيخان سعيد بك، ساعدها السَّائق الأَرمني هاكوب ونقلها في سيارته إلى الموصل، ثم إلى بغداد، وأوجد لها مكاناً لدى عائلته للاختباء، وكان الدافع أن إسماعيل بك قد أنقذ عائلة هاكوب من الإبادة على يد الأتراك[80].

(78) انظر: چول، اليزيدية قديماً وحديثاً، تحرير، قسطنطين زريق، بيروت: المطبعة الأمريكانية 1934 ص53-72.

(79) الأب أرملة، القصاري في نكبات النَّصارى، السويد: دار سركون للنشر 1998 (الطبعة الأولى 1910) ص98.

(80) جون، كيست، تاريخ اليزيدين، ترجمة وتحقيق عماد جميل مزوري، بيروت، الدَّار العربية للموسوعات، 2006، طبعة الكتاب الأُولى

كان هناك دور للقائمقام المسلم العراقي ثابت السويدي في محاولة إنقاذ المسيحيين مِن تلك الإبادة، وقد فقد حياته مِن أجل ذلك. يروي النَّائب في مجلس المبعوثان (البرلمان العثماني) سليمان الفضي (ت 1951) قصة السُّويدي، الذي التقاه وهو عائد إلى العِراق عبر حلب كشاهد على تلك الإبادة، يوم كان يشغل منصب قائمقام قضاء البشيرية في ولاية ديار بكر، والمعروفة في التَّاريخ باسم آمد. قال السُّويدي: «كنت أشغل قائمقامية قضاء البشيرية في ولاية ديار بكر، وجاءت أوامر الحكومة إلى الوالي رشيد بك الجركسي بذبح الأرمن القاطنين تلك الدِّيار. فأرسل هذا عصابة مِن الجراكسة تولوا ذبح الأرمن والمسيحيين على اختلاف مللهم، بصورة وحشية لا يمكن وصفها، ولم ينج مِن أيديهم طفل ولا شيخ ولا امرأة».

وأردف قائلاً في ما فعلته حكومة الاتحاد والترقي بعد عزل السُّلطان عبدالحميد الثَّاني (ت 1918): «كان مِن الطَّبيعي أن أعترض على قتل المسيحيين العرب، الذين يشهد الجميع بأنهم لم يعصوا أمر الحكومة، ولم يكن لهم أدنى علاقة بالأرمن. وكتبت إلى الوالي أصف له المذابح البربرية، التي ارتكبها رجاله. فغضب مني وشكاني إلى إستانبول، واتهمني بحماية الأرمن، فأمرت الحكومة بنقلي إلى قضاء روم قلعة مِن أعمال حلب، وهأنذا إلى القضاء المذكور»[81].

يقول فيضي: «إنه عندما وصل إلى بغداد واستقبله الأصدقاء افتقد أحد القريبين عليه، وهو يوسف السُّويدي (ت 1929)، وكان مِن رجال اليقظة الفكرية، وعضو مجلس الأعيان في عهد فيصل الأول (ت 1933)، وشخصية معروفة في العهد العثماني مِن قبل (المطبعي، أعلام العراق في القرن العشرين). أسرع فيضي إلى داره، ووجده منكسراً كئيباً، وما إن أبلغه بلقائه بولده ثابت حتى أجهش بالبكاء قائلاً: «لقد قُتل ثابت»! فقد دُبر قتله بمعرفة والي ديار بكر. فحسب رسالة وصلت لصاحب المذكرات فيضي أن الوالي المذكور خشي مِن ثابت أن يتصل ويخبر عن تلك المجزرة،

1996 ص411.

(81) سليمان، فيضي، مذكرات سليمان فيضي: من رواد النهضة العربية في العراق، بيروت، دار الساقي، الطبعة الأولى، 1998، ص191-192.

ففتكوا به بعد ست ساعات من لقائه فيضي بديار بكر، وافترق بهما الطَّريق. وبعد أن عُقدت الهدنة في الحرب العالمية الثَّانية فتح التحقيق في تلك المقاتل، فلجأ الوالي الجزار رشيد بك الجركسي إلى الانتحار.[82]

إحصاء[83]

قدر عدد المسيحيين العراقيين العام (1975) بنصف مليون نسمة، موزعين على النَّحو الآتي: الكلدان الكاثوليك، وهم الأغلبية، (316) ألف نسمة، لديهم: بطريرك واحد، تسعة أساقفة، (94) كاهناً، مئة كنيسة، و(30) ديراً.

وبلغ الآشوريون النَّساطرة (82) ألف نسمة، لديهم: بطريركان، أربعة أساقفة و(34) كاهنا (38) كنيسة وعشرة أديرة. السريان الكاثوليك (40,500) نسمة، لديهم: أسقفان، (35) كاهنا، (19) كنيسة وستة أديرة.

وعدد السِّريان الأرثوذكس (29,700) نسمة، لديهم أسقفان، (16) كاهناً، (20) كنيسة وأربعة أديرة.

وقُدر الأرمن الأرثوذكس بـ(19) ألف نسمة، لديهم: أسقف واحد، ستة كهنة، ست كنائس وديران. واللاتين - كاثوليك - (3500) نسمة، لديهم: أسقف واحد، 18 كاهناً، ثلاث كنائس وستة أديرة.

وأرمن كاثوليك (2180) نسمة، لديهم: أسقف واحد، ثلاث كهنة، كنيستان. وعدد البروتستانت (1500) نسمة، لديهم: أسقف واحد، كاهن واحد وثلاث كنائس.

وأقباط (1500) نسمة، لديهم: كاهن واحد وكنيسة واحدة. وسبتيون (1500) نسمة لديهم: أربع كنائس، بلا أساقفة ولا كهنة. وروم كاثوليك (500)

---

(82) المرجع نفسه، ص 192.

(83) للتوسع في الاطلاع على الأديرة والكنائس القائمة اليوم انظر: الأب حبي، كنيسة المشرق الكلدانية – الآثورية، الفصل التَّاسع، الأديرة القائمة، ص95 وما بعدها. الأب حداد، كنائس بغداد وديارته، بغداد: شركة ديوان للطباعة 1994.

نسمة لديهم: كاهن واحد وكنيسة واحدة[84].

غير أن تقرير مديرية الأمن العامة عدهم، وفقاً لإحصاء العام (1977)، بما هو أقل من هذا بكثير، وأقل بكثير أيضاً من التَّصورات الحالية التي قدرتهم بثلاثة أرباع المليون. إذ قدرهم التقرير المذكور بـ(478, 253) نسمة، وأورد عددهم الكلي حسب الإحصاءات السابقة (1947، 1957، 1965) على التَّوالي: (377, 149)، (226, 204)، (406, 232) نسمة[85].

كذلك نشرت مجلة «بين النَّهرين» تقريراً وافياً خاصاً ببطريركية بابل الخاصة بالكاثوليك الكلدان يوضح عدد الأتباع والكنائس والنشاط العام مفصلاً يحوي أبرشيات: الموصل، بغداد والبصرة، زاخو عقرة، العمادية، كركوك. ويظهر الإحصاء أن عدد كنائس الموصل بلغ 31 كنيسة، وعدد الكاثوليك الكلدان فيها (51491) نسمة.

تأتي بعدها كنائس العمادية، المعروفة قديماً ببيت زبدى، التي بلغت 23 كنيسة و(6379) نسمة. زاخو 20 كنيسة و(7501) نسمة. عقرة 12 كنيسة و(1749) نسمة. بغداد والبصرة معا 12 كنيسة و(49420) نسمة. وكركوك 9 كنائس و(11890) نسمة. المجموع العام (108) كنائس و(99) قسا، و(128430) نسمة[86].

كانت سيطرة داعش، أو دولة الخلافة، على محافظة الموصل، شمال العراق، كارثة تاريخية، لم يحصل مثلها في العصر الحديث، فليسجل التَّاريخ أنه في يوم 19 رمضان 1435 (المصادف 17 تموز/ يوليو 2014) تعرض مسيحيو الموصل، وهم سكانها القدماء إلى واحدة من فظائع الإسلام السِّياسي، ممثلاً بجماعة أعلنت دولة الخلافة الإسلامية. عندما خيرَ (أمير المؤمنين) أبو بكر البغدادي أُصلاء الموصل

(84) أرملة، القصارى في نكبات النَّصارى، ص145 ملاحق.

(85) مديرية الأمن العامة، التوزيع الديني للسكان العراقيين، ص26.

(86) الأب روفائيل الأول بيداود، إحصائية عن كاثوليك الطقس الكلداني لبطريركية بابل، مجلة بين النهرين، العدد 108-107 السنة 1999.

بين ثلاثة خيارات: الإسلام، أو عهد الذِّمة، أو السَّيف، واختتم بيانه بالعبارة: «وقد مَن عليهم أمير المؤمنين الخليفة إبراهيم، أعزه الله، بالسَّماح لهم بالجلاء بأنفسهم فقط من حدود دولة الخلافة»، محدداً لذلك موعداً وإلا «ليس بيننا وبينهم إلا السَّيف»[87]!

سأنطلق من مثالين يبينان بوضوح فضيحة الوعي المخبوء في عقول هؤلاء، وهم جماعة من جماعات الإسلام السياسي، عن الماضي البعيد والقريب، وكلاهما حصلا بالموصل، أحدهما تصرفه فقيه مسلم موصلي والآخر لحبر من أحبار مسيحيي الموصل، يدللان على رداءة الحاضر بوجود هذه الجماعات، وحربها ضد فكرة الوطن، لأنها تأخذ المذهب والدِّين العابري الحدود الوطنية كنهج في السِّياسة، وتالياً لا يبقى للوطن معنى، وإلا كيف لغرباء يتحكمون بالبلاد باسم الدِّين، يكفي أنها فكرة «الخلافة»، التي كانت منسجمة مع عصر الممالك الشَّاسعات.

اقتبس المثل الأول مما أرخ ابن خِلِّكان (ت 681 هـ) لهذه المنبقة في حياة أهل الأديان، وكان يتردد على الشيخ يونس كمال الدِّين بحكم صداقته لوالده، قال: «وكان أهل الذِّمة يقرأون عليه التَّوارة والإنجيل، وشرح لهما هذين الكتابين، شرحاً يعترفون أنهم لا يجدون مَن يوضحهما لهم مثله»[88]. بعدها أرخ لذلك جمال الدِّين الأسنوي (ت 772هـ) في نقله لرواية تدرَّيس فقيه شافعي للتوراة والإنجيل لمعتقديهما بالموصل. قال: لما عاد الفقيه الشَّافعي أبو الفتح موسى بن يونس الملقب بكمال الدِّين (ت 639ه/ 1241 م) إلى مدينته الموصل «عكف على الاشتغال يُدرَّس بعد وفاة أبيه في مسجده، وفي مدارس كثيرة، وكان مواظباً على وظائفها، فأقبل عليه النَّاس، حتى أنه كان يقرئ أهل الذِّمة التَّوراة والإنجيل»[89].

---

(87) نسخة البيان الرسمية، التي أصدرها تنظيم داعش نشرتُ على مواقع الإنترنت بكثافة، ومنها موقع عشتار نشره في 18 يوليو (تموز) 2014:

http://www.ishtartv.com/viewarticle,54983.html

(88) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان، تحقيق، محمد، محيي الدِّين عبد الحميد، القاهرة، مكتبة النَّهضة المصرية، 1948 ، ج 4 ص 397.

(89) طبقات الشَّافعية، تحقيق، عبد الله الجبوري، بغداد، مطبعة الرَّشاد 1970، ج 2 ص 571.

هذا، ولم ير معاصرو الكمال تصرفه بالغريب، ولم ينعتوه بردة أو انحراف، بل على العكس، قيل فيه[90]:

تُجر الموصل الأذيال فخراً

على كل المدائن والرُّسوم

بدجلة والكمال هما شفاءٌ

لهيمٍ أو لذي فهم سقيم

فذا بحر تدفق وهو عذبٌ

وذا بحرٌ ولكن من علومِ.

إن مثال تصرف الفقيه الكمال ليس عادياً في زمننا البهيم هذا، وأراه كان مقبولاً قبل ثمانمائة عام! فتأمل فداحة الوعي المخبوء للمنطقة، وما يحصل بالموصل، وسط ظلم مرير، قد يُبرره الماضي بالحروب والغزو المتبادل، لكنَّ بما يُبرر في الحاضر، ويمارس على جماعة مسالمة قولاً وفعلاً، قد تعجز الكلمات عن التعبير عن تبيان الموقف.

أما المثال الثَّاني، وهو تصرف صدر مِن حبر مسيحي، ومِن أهل الموصل أيضاً، تجاوز كلَّ اختلاف ديني، ما مضى وما أتى منه، إنه بطريرك الكلدان الكاثوليك (1900–1947) يوسف بن توما عمانوئيل الثَّاني، والمولود بالقوش التَّاريخية بعمارتها ومسيحيتها أيضاً، والمجاورة للموصل، تصرف بمسؤولية عالية، عابراً بقية الحدود، نقل عنه العراقي اليهودي مير بصري (ت 2006) الآتي:

«إن القيادة العثمانية نفت إبان الحرب العظمى الماضية (الأولى) نفراً من وجهاء بغداد من مختلف الطَّوائف والمذاهب وأشخصتهم إلى الموصل في طريقهم إلى الأناضول، فذهب الفقيد إلى القائد الألماني (فون درغواز باشا) يشفع فيهم.

(90) ابن خِلكان، وفيات الأعيان 4 ص 400.

فأبدى المشير استعداده للعفو عن المسيحيين منهم فقط. فقال الحِبر: إنني رجل دين، أب للجميع، ولا أخص ملتمسي بفريق دون فريق، فاعدهم جميعاً أو فاجلهم جميعاً، ولم يكن من القائد إلا أن أجاب سؤله، وأمر بإعادة المنفيين جميعاً»[91]. علق بصري على هذا التَّصرف قائلاً: «وإن في هذه المأثرة لعبرة لنا ودرساً، فهي تُعلمنا أن الإنسانية فوق الطَّوائف والأديان»[92]!

أقول: أي النَّموذجين، الكمال الشَّافعي أم عمانؤيل الكاثوليكي، لا يفضح رداءة الوعي المخبوء في أردان هذه الجماعات، صدورهم مملوءة بالكراهية! فالموصل بسمائها وأرضها هي نفسها، وعلى حد تعبير محمد سعيد الحبوبي (ت 1915): «سماء اليوم مثل سماءِ أمسٍ/ وما نقصت سمواً وارتفاعاً»(الدِّيوان). فما انتقص غير العقل، ويصعب وصف ما حصل بالتَّراجع أو تشبيهه بالقرون الوسطى، فتلك القرون قياساً بمستواها الاجتماعي والسياسي والثَّقافي تُعد متقدمة. مِن الخطأ وصف هؤلاء بالتَّراجع، إنما وصفهم بالعبث بدماء وعقائد النَّاس.

تلك لمحة عامة، وموجزة، عن تاريخ المسيحية بالعراق، وقد أتيت في كتاب «الأديان والمذاهب بالعراق» بدراسة واسعة شغلت الفصل الرابع من الجزء الأول (صدر الكتاب بثلاثة أجزاء). نفهم من هذه اللمحة أن الجذور عميقة، وأن خلو العراق من المسيحيين، أو السريان والكلدانيين، يعني إفراغه من تاريخ تشكل على أرضه لألفي عام، وتغييب جانب أساسي من ثقافته، وترك آثار يندر وجود مثلها، من أديرة وكنائس وقرى ومدن، إنها كارثة حقيقية بدأت تحل بالعراق، لهذا لابد من عمل جاد للوقوف بوجه مسببات هذه الهجرة، وفي مقدمتها التهميش المتعمد والإرهاب المجنون ضدهم.

مقترحات لوقف الهجرة

- أن يصار إلى تشكيل موقف وطني مكثف، من طريقه تناشد الأمم المتحدة

(91) أعلام السِّياسة في العراق الحديث، بغداد- لندن: دار الحكمة 2004 ج 2 ص 632.

(92) المصدر نفسه.

والمؤسسات الدولية الأُخر، وطرح القضية ككارثة اجتماعية وثقافية.

- الضغط على الحكومة العراقية للقيام بدورها في حماية وجود هذه الجماعة الأساسية في ماضي وحاضر البلاد.

- فضح الصفقات التي تجري لسماسرة العقارات، أو المتربصين بتركة المهجرين من ديارهم من أملاك ومنازل، وقد حصل هذا في قضية تهجير اليهود من قَبل.

- العمل، من طريق الضغط على الدوائر الرسمية، بتوفير ظروف مناسبة لعودة المنتظرين من المسيحيين في دول الجوار.

- الاستمرار بعقد المؤتمرات والندوات، فعبرها تبقى القضية حيَّة.

- صحيح أن هناك دواعٍ لترك العراق، ليس من قبل المسيحيين فقط، إنما من أقوام العراق الآخرين أيضاً، بسبب الظروف الأمنية والمعاشية، وجذب البلدان الأوروبية وأمريكا لِما فيها مِن تسهيلات وضمانات حياتية، لكن هذا يؤثر بقوة على الوجود المسيحي، وذلك بسبب قلة الكثافة، لذا لابد من تنوير الأسر المسيحية بأهمية الوجود على أمل بتجاوز المحنة، فهجرتهم تعني هدم أثر شيد خلال ألفي عام، وما يعنيه وجودهم لبقية مسيحيي الشرق، مع علمنا أن الشرق هو منبع هذه الديانة.